تعريف بالكتاب

اذا تلخصت حياة بروست واعماله الفنيـــة فى كلمتـين فالذاكرة والمطالعة هما هاتان الكلمتان .

ومن اصالة هذا الكاتب التي تتلخص فى مطابقة فنه لشعوره ومطابقة شعوره لتعبيره ان سيرته الوجيزة تكفي لبيان هذه الحقيقة كما تكفى لتفسيرها والدلالة عليها .

ولد مارسيل بروست بعد هزيمة فرنسا فى حرب السبعين بسنة واحدة ، وكان مولده فى العاصمة التي لم تزل ترزح بأثقال هذه الهزيمة، وفى البيئة الاجتماعية التى احست جرائر هذه الهزيمة على اشدها ، اذ كان ابواه من الطبقة الموسرة المتعلمة ، وكان ابوه ادريان بروست استاذا بمدرسة الطب وامه من سلالة يهودية ذات صلة بالأعمـال الماليـة او « بمراكز القيادة » فى الحياة الاقتصادية ، وقـد نشأ الطفـل مفـرط الحساسية واصيب بالربو ولما يبلغ العاشرة ، فأحاطت به رعاية امـه وعودته باختياره ، وعلى غير اختياره ، أن يتعلق بها ويعلق سعادته كلها بالنظرة منها والابتسامة وبالكلمة العابرة والتحية المتصلة ،وشملته عناية ابيه طبيبا ووالدا واحس من معاملته اياه انها معاملة تمريض واحسان قبل ان تكون معاملة تربية واعداد للحياة ، لأن الوالد الخبير بالتطبيب لم يجد لعلاجه وسيلة مرجوة خيرا من تركه على هـواه واعفـائه من التكاليف والمطالب وتدليله على هذه الوتيرة وان لم يقصد بها الى التدليل فسمح له بأن يقضى كل موسم من مواسم السنة ، صيفا وشتاء ، حيث تطيب له صحبة الناشئة الفارغين من أعباء العيش والدراسة ، وكلهم مسموح له فى بيئته بمجاراة الزى المنتقى والبدعة الشائقة ، والاقبال

على غرائب المتع ونوادر العادات التى تعرض للصبى المترف فى دور المراهقة ، وكان من حين الى حين يتردد على معاهد الفن فى وطنه وفى البلاد الايطالية ، فسنحت له الفرصة بعد الفرصة لتزجية الفراغ بالنظر الى محاسن البناء والاستماع الى روائع الموسيقى والغناء ، والاقتباس من آراء الخاصة فى اندية الطبقة الموسرة والحكم على الاذواق والمشارب فى عامة الوان الأدب والتفكير ، ومتابعة القضايا العصرية فى ميادين السياسة والاجتماع ، فتمت له — على مهل — عدة الناقد الانيق او عدة الناقد المتفرج بمعزل عن ضرورات العيش وسلطان القراء والناشرين .

ثم اشتدت عليه وطأة المرض والجأه الضعف الى الاعتكاف فى حجرة مبطنة الجدران تحجب عنه الأصوات والأضواء ، وانقطع عن المجتمع شيئا فشيئا لاضطراره الى ملازمة الحجرة واجتناب اضواء النهار ، بل اجتناب كل ضوء ساطع غير الضوء الخافت الذى يمكنه من القراءة او الكتابة وهو طريح الفراش .

ومن اليسير ان نفهم كيف أصبحت حياته كلها موكولة الى ذكرى الماضى ومطالعة الكتاب ، لأنهما كل ما يستطيع من متعة ومن عمل فى حياته الحاضرة ، ولكن الذكرى — فى مثل هذه الحالة — شىء يزيد كثيرا على العودة الى الماضى ، كما تزيد المطالعة فى مثل هذه الحالة على تلاوة الكلمة وفهم العبارة وعرض الفكرة أو الخاطرة المسطورة على الصحيفة .. انها اعادة الماضى الى عالم الحس كأنه يجتر طعاما حارا من وجبات الغذاء فى يومه وساعته ، وان المطالعة هنا ليست بقراءة الكلمات ولا بفهم المعانى بل هى « احياء أدوار » كالأدوار الطبيعية التى يحييها الفنان القدير المطبوع على مسرح التمثيل ، وقد أودع هذا الفنان القدير المطبوع ذكرياته ومطالعاته هذه فى كتابه الذى سماه « بحثا فى الماضى المفقود » أو استنفادا له من الضياع ، فليست ذكرياته ماضيا غبر وانقضى ولكنها هى الحاضر المتجدد الذى يفتأ يعود ويتكرر على الأزمنة المتعاقبة فلا يتبدل منه غير شخوص التمثيل ، وهو فى كلامه عن الماضى المستعاد يشكو من نقاده الذين زعموا انه سلط (الميكرسكوب) على خبايا عقله الباطن فقال انه لا يستخدم الميكرسكوب بل يجعل تعويله كله على

التلسكوب الذى يقرب البعيد الذى يرونه لبعده صغيرا جدا وهو هنالك عالم واسع كتلك العوالم السابحة فى ظلمات البقعة الزرقاء .

وعند بروست أن القراءة لا تنقل الينا شيئا خلت منه نفوسنا « ولكن الكتاب اداة كأدوات النظر يضعها الكاتب على عينى القارىء ليكشف له طوايا نفسه ولم يكن ليعثر بما تطويه لو لم يهده اليها ذلك الكتاب » .

وقد عاش بروست فى عصر الحديث عن التطور والنكسة الى الماضى وتفسير العيوب النفسية والجرائم احيانا بانها رجعة من الانسان المتحضر الى اغوار الهمجية الأولى Atavism ، ولكنه لم يكن على مذهب المنشوئيين فى هذا التفسير للعيوب والرذائل ، وانما الرذيلة عنده خروج من الحدود الى سعة من الدنيا ليس لها حدود ، ويعجبه لهذا قول بودلير ان الرذيلة دليل على التطلع الى اللانهاية او الخروج من ضوابط الحدود .

اما « بروست » ابن بيئته الاجتماعية فهو « بروست » الذى ينتمى الى أسرة بارزة بين والد من الموسرين غير النبلاء ووالدة من سلالة يهودية فى عصر الصراع بين «الارستقراطية» المدبرة والبرجوازية المقبلة ، وفى عصر القضية التى اقامت فرنسا واقعدتها حول اتهام الضابط اليهودى دريفوس .. ونحن نقرأ هذا الحوار فى الحديث التالى اذ يقول بريزون : جماعة فردور هم جماعة البرجوازية الأغنياء الناهضون الاقوياء ذوو الشكيمة ، فيجيبه زميله أوبريان : نعم . ويعود بريزون فيقول : وجرمانت هم جماعة الارستقراطية الشائخة المنهدمة .. ثم يمضى بريزون ليعلل موقف بروست بين الطبقتين قائلا : « انه ابن لوالدين محترمين ولكنهما ليسا من الأرستقراطية .. وفيه دم يهودى .. وهذا له أهميته .

تقرأ هذا الحوار فتعلم أن فلسفة بروست الاجتماعية ليست الا الفلسفة التي تنتظر منه ، وان اسبابها ليست الا الأسباب التى تدل عليها سيرته ونشأته فى عصره ، وان ذكرياته الماضية التى تشرح لنا مذهبه فى التاريخ ليست بشىء غير احساسه الحاضر ينقله الى الماضى ويبسطه

على حوادث الدولة والدنيا وحوادث الدين ورؤساء الدين . وقد اصاب نقاد پروست فى حوارهم التالى حين قالوا عنه انه ليس بالمؤرخ الذى يحقق حوادث الزمن ما غبر منه وما حضر ، وانه لم يكن يعنيه ان يصور انحلال العصر وانهيار دعائم المجتمع فى زمانه ، ولكنه « ممثل » يعرض الزمن كله على طريقته فى الاخراج والتمثيل ، وانه يقيم مسرحه بتخاذيل نفسه ، ويحيل حوادث العصور الى منظر من مناظر حياته ، ولا يحسب رذائل العصر علامة من علامات الانحلال والانهيار ، لانه يشعر باطواله على الوان من تلك الرذائل ويدفع عن نفسه وعن العصر كله عوارض الانحلال والانهيار ، لأنه عاش على ديدنه فى الماضى المفقود ولم يفصل بين ذلك الماضى وبين حاضره المستعاد بفاصل محدود . وكذلك قال هنداس فى الحوار التالى : « ان پروست لم يكن له مزاج المؤرخ الاجتماعى وان اعمق ما قال عن المجتمع انه يشبه الكاليدوسكوب تتغير رسومها ونماذجها بلا انقطاع « فالجماعة المسيطرة على المجتمع تظل فى تغير . ولكن المجتمع لا يتقدم تقدما له اى دلالة » .

ولا يسع القارىء ان يعبر هذه الصفحات دون أن يلحظ فيها كثرة الاشارة الى المناظير والمجاهر وادوات النظر عامة فى تشبيهات پروست كلما حاول ان يقرب الى القارىء معنى من معانيه أو صورة من صوره الفكرية والعاطفية ، فهذه ايضا لازمة من لوازم التاقد الذى يشعر بأنه « متفرج » على الماضى والحاضر وأنه يقدم للناس معرضا من صوره وتمثيلاته يتفرجون عليه ، واسلوبه هذا فى النظر الى التاريخ والى المجتمع والى الأخلاق والعوارض النفسية ، هو بعينه أسلوبه فى النظر الى الكتب والى المؤلفين ونقاد الكتابة والتأليف : انه يتجنب كل ما يغشى الصورة المنظورة من غواشى الغموض وحوائل الرموز ويعاف كل مايحجب المرئيات من رمزية أو مجازية أو تلفيق وتلبيس ، ولا يصطنع التزويق الذى يعافه الأنيق المطبوع على الأناقة وهو على العهد به فى الحياة والفن لا يتجافى عن الذوق السليم ، وغاية ما يرتضيه من التجميل أن يدير المنظار حين يخشى أن يرى أمامه ما ليس يرتضيه ، أو يسلم الصورة الى الذاكرة التى تلف كل ماض تحتويه فى سربال من الحب والجمال ، كأنه وشائع السحاب حيث يرسمها لنا الفضاء البعيد .

عباس محمود العقاد